عناية علماء جهة بني ملال خنيفرة بعلوم اللغة العربية

النحو في العصر السعدي نموذجا

محمد الشكري

باحث في سلك الدكتوراه

المغرب

تصميم المقالة:

مدخل التأطير وتحديد المفاهيم

تمهيد

- التعريف بالدولة السعدية
  - مرحلة النشأة والارتقاء
  - مرحلة القوة والاستواء
  - مرحلة التراجع والانكفاء
- التعريف بعلوم اللغة والنحو
- جهود علماء الجهة في اللغة العربية

تمهيد

- المرابط الدلائي مدرسا للنحو
- المرابط الدلائي مصنفا في النحو
  - نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل
  - فتح اللطيف للبسط والتعريف في علم التصريف
  - النوازل اللغوية

خاتمة

مـدخـل: التأطير وتحديد المفاهيم:

تمهيد:

ارتبط المغاربة بالقرآن الكريم وتعلقوا به منذ الفتح الاسلامي، ومن حبهم وتعلقهم هذا نشأ اهتمامهم باللغة العربية باعتبارها الطريق إلى فهم وأداء الواجب الديني، فأقبلوا على تعلم اللغة العربية طالبين علومها، وعلى راس هذه العلوم نجد النحو مع الصرف، ثم البلاغة ببيانها ومعانيها وبديعها، ثم علوم الشعر دِراية ودُرْبة، هكذا طُبعت مراحلهم الأولى بطابع الاستمداد، قبل أن يتمكنوا من الصنعة ويتحولوا إلى الإمداد.

لم تقتصر عناية المغاربة باللغة العربية وعلومها بجهة دون أخرى، أو بقبيلة معينة، أو مدينة أو قرية أو ناحية، بل تنافس هذا الشرف كل المغاربة دون استثناء معتبرين تعلم العربية من الدين، ومن هذه الجهات التي اعتنت بعلوم اللغة العربية تعلما وتعليما وتأليفا نجد جهة بني ملال خنيفرة.

مما لاشك فيه ان تناول ما ألفه علماء الجهة في علوم العربية عبر العصور مسعى صعب المنال، وأن علوم اللغة متعددة ومتشعبة، لذلك سيسلك المقال مقاربة انتقائية هادفة ستركز على العصر السعدي لاسيما في أواخره من حيث الزمن، وعلى علم النحو باعتباره اساس علوم اللغة من حيث الموضوع، توخيا للدقة والنجاعة.

هكذا ستقف الدراسة حول تأطير الموضوع زمنيا في أواخر الدولة السعدية بلمحة تاريخية وظيفية، وستعرف بعلم النحو أهم علم في علوم الالة، والذي تُبنى عليه بقية العلوم دون استثناء.

التعريف بالدولة السعدية:

- مرحلة النشأة والارتقاء:(915هـ - 986هـ)

اختلف في أصل الدولة السعدية بين من يعتبرهم أشرافا قدموا من الحجاز، و بين من يعتبرهم غير ذلك، وإنما لقبوا بالسعديين تفاؤلا، وبين من يعدهم من بني سعد بن بكر الذين تنتسب إليهم حليمة السعدية، مرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

جاء في الاستقصا:"اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون إن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز، وإنهم اشراف من ولد محمد النفس الزكية رضي الله عنه، وإليه يرفعون نسبهم. .." [1]

نجد هذا المذهب نفسه عند الفشتالي في مناهل الصفاء وهو يقارن بين المنصور السعدي وعلي بن ابي طالب قائلا: "هذه المنقبة الجليلة التي لمولانا الامام أمير المؤمنين أيده الله بها الأسوة الحسنة بجده الإمام علي كرم الله وجهه وأعظم منقبة تروى"[2]

وقد وجد من يطعن في هذا النسب من أمثال الشيخ ابن طاهر، وقيل إنه تراجع عن ذلك، قال الناصري: "مستند من يطعن في نسبهم عدم وضوحه، ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته في نفس الأمر... فلا سبيل لأحد أن يدفعهم عنه إلا بقاطع، ولا قاطع كما علمت"[3].

كانت بداية السعديين من درعة مع أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله، والمعروف بالعفاف والصلاح سنة خمس عشرة وتسعمائة [4]، ثم ما لبثوا أن وصلوا إلى سوس باستقدامهم من طرف أهل البلد رغبة في حماية الثغور من العدو القادم من البحر.

ويمكن اعتبار هذه البداية حصيلة أمور منها:

- ضعف الدولة الوطاسية مما جعل الحاجة ماسة لعنصر جديد يحمي الدين والوطن، وينشر الأمن بين المواطنين.

- التمهيد للظهور بالأصل الشريف سيرا على ما سبق من دول المغرب سدا لعواقب الخروج على الخليفة، والتشبث بالصلاح، وما يصاحبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يُعد تدخلا في شؤون الدولة.

- الرغبة المتبادلة بين الشيخ وأهل سوس، فالشيخ يريد الرئاسة له ولولديْه من جهة، وأهل سوس يريدون جمع كلمتهم حول رجل ثقة، لا يكون محل شك أو نقاش للسير إلى ما وراء الاختيار من جهة أخرى.

- اغتنام الفرصة للوصول إلى الغاية؛ فقد ذكر الناصري نقلا عن "مانويل" أن السلطان أبا عبدالله الوطاسي قرب أبا عبد الله محمد القائم بأمر الله لكونه ينادي في الناس بالجهاد إظهارا للنصح، لكن الرجل وأبناءه يسرون حسوا في ارتغاء، وينشرون معايب الدولة للعامة ويدعون لأنفسهم وصار حالهم ينمو شيئا فشيئا إلى أن استبدوا على السلطان، ولم يرجعوا إليه بعد.

ويرى المؤرخون أن المعركة الحاسمة بين السعديين والوطاسيين تلك التي دارت ب"مشرع أبي عقبة" على وادي العبيد سنة (943هـ ـ 1536م) والتي انتهت بانهزام الوطاسيين. ولهول المعركة سمي العام عام "أبي عقبة" وقد علق الاستاذ عبدالوهاب بن منصور على هذه المعركة بكون الحابل اختلط بالنابل، وأخذ الوطاسيون يرمون بأنفسهم في النهر وبأمتعتهم محاولين النجاة، فغرق أكثرهم، وامتلأ النهر بجثثهم. .. ومن بين قتلى هذه المعركة أبو عبد الله بن الأحمر، آخر ملوك المسلمين بالأندلس، وفقّد أبو العباس الوطاسي ابنه وعددا من قواده ونسائه.[5]

ظلت مرحلة النشأة والارتقاء من سنة خمس عشرة وتسعمائة إلى سنة ست وثمانين وتسعمائة، كلها صراع حول المواقع، حارب خلالها السعديون بعضهم بعضا حول السلطة، فقاتل الأخ أخاه، وغدر الابن بأبيه، وحارب الأب ابنه فكانت الحاجة ماسة إلى نصر خارجي يصنع هيبة السلطان، داخليا وخارجيا، سيما وأن أطماع العثمانيين والإسبان تتكالب حول المغرب، وذلك ما كان في معركة وادي المخازن.

- مرحلة القوة والاستواء (986هـ -1012هـ)

ارتبط عصر القوة والازدهار لدى الدولة السعدية بولاية أحمد المنصور الذهبي، إلا أن هذا الازدهار أسهم فيه وبشكل كبير أخوه عبد الملك، من خلال جمعه للعدة والاعداد التي خاضت الحرب بوادي المخازن، فصنعت للسعديين وزنا استمر إلى معركة واد إسلي.

قال الناصري: قال في "المنتقى المقصور": كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة، والوقائع الشهيرة، حضرها جَمٌّ غفير من أهل الله تعالى حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر. حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب اليدري عمن يثق به أن الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق إلى النصراني لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتا "[6]. ويبدو أن هذه المعركة شاركت فيها معظم الدول الأوربية حتى تبقى شبه الجزيرة الإيبيرية قلعة مسيحية محصنة، ضد المغاربة من جهة، وضد الخلافة العثمانية من جهة أخرى. جاء في "مناهل الصفا": "فقد أدرك الإسبان والبرتغال بدورهم أهمية الموقع المغربي للدفاع عن غربي أوربا المسيحية ضد خطر العثمانيين المسلمين، والتسرب نحو افريقيا لاستغلال خيراتها، ونشر المسيحية بها، وقد احتلوا بذلك قواعد مختلفة على شواطئ المغرب الشمالية والغربية، وعززوا تحصيناتهم بها"[7].

إن هذه المعركة الحاسمة إذاً قطعت الشك باليقين، داخليا وخارجيا، فقد قضت على الخونة الذين لجأوا إلى الاسبان بزعامة مولاي محمد الأكحل المسلوخ ابن أخ السلطان عبد الملك المعروف بمولاي ملّوك، فأمده سيباستيان البرتغالي وفيليب الثاني الاسباني بآلاف من جنود الاسبان والبرتغال وفعل مثل ذلك بابا روما والألمان وغيرهم، فزودوا مولاي محمد المسلوخ بالمراكب والمدافع. .. إلا أن عزيمة المغاربة بقيادة مولاي ملوك قضت على أطماعهم وسقط منهم عدد من ألوف أمم النصرانية ومنهم الملوك الثلاثة. وكما قال الفشتالي فقد ظهر حزب الله على حزب الشيطان، فأقيمت أسواق التباشير بنصر الملة واعتزاز الدين، فسمت بذلك ملوك الدنيا من أهل الملتين إلى مخاطبة أمير المؤمنين. .. للتهنئة بالفتح والخلافة[8].

إن مرحلة المنصور الذهبي أزهى مراحل الدولة السعدية، ففضلا عن هزم الصَّليبيين شمالا، وصل المنصور إلى تكورارين وتوات وبلاد السودان فبنى للمغرب امبراطورية عظيمة ليكون لها الأثر في الجانب الثقافي ومنه الاهتمام بعلوم اللغة والدين وغيرهما.

يقول الدكتور مصطفى الصادق العربي: "كانت فترة المنصور من أروع الفترات في تاريخ المغرب الأقصى، ومن أكثرها انتصارا على الأعداء في الداخل والخارج، فأصبح يُخطَب وُدُّه، ويهاب جانبه، ويتزلف إليه بالهدايا والعطيات"[9]

بعد هذا النصر المبين يمكن الخروج ببعض الخلاصات كالآتي:

* خلق هيبة عسكرية للمغرب أمام الأطماع الأجنبية.
* جمع موارد جديدة للدولة من غنائم الحرب، واحتياطات مهمة من الذهب والفضة بفك الأسرى واسترجاع رفات الأموات.
* جدارة المغرب لاستقلاليته عن العثمانيين.
* تنظيم الدولة إداريا وسياسيا وتشجيع الثقافة والفن...
* تشجيع الجانب الاقتصادي والتبادلات مع الخارج...

وخلاصة لهذه المرحلة التي هي غرة على حبين المغرب كما قال عبد الله كنون ولو لم تنجب الدولة السعدية سوى المنصور الذهبي لكفاها ذلك شرفا وعزة وفخرا[10].

- مرحلة التراجع والانكفاء (1012هـ - 1065هـ)

بعد وفاة المنصور الذهبي سنة اثنتي عشرة وألف للهجرة (1012 هـ) بدأ التراجع يظهر على الدولة السعدية، وكان داء الطاعون أول اختبار للدولة عجزت أمامه، وعلى مدى سبعة سلاطين لم يكن للدولة وزن وإن استمرت إلى حين، فكانت السلطة هي الغاية لكل المسؤولين، وقد بدأ هذا المسعى نحو الحكم يظهر في توجهات بعض الحكام واستقوائهم بالخارج، إما بالعثمانيين الأتراك، أو بالاسبان؛ ففي أواخرحكم المنصور الذهبي نشأ خلاف بينه وبين ابنه المامون، وكاد ينتهي بحرب بينهما، وبعد وفاة المنصور دبّ الشقاق بين أبنائه الثلاثة، المأمون وأبي فارس وزيدان.

أمام هذا الوضع غير السوي، عادت أطماع الأوروبيين في المغرب، وقد وعد بعض الحكام الاسبانَ بميناء العرائش، وبتسهيلات ومنافع نظرا للتناحر الداخلي بين الإخوة والأعمام، وضغط بعض هؤلاء الحكام على الفقهاء للإفتاء كرها لصالحهم، فضاعت أوضاع البلاد وساءت أحوال العباد، فكره الناس السعديين، وهم يتوقون إلى من يخلصهم منهم، فلاحت في الأفق قوى جديدة من المتصوفة ورجال القبائل والفقهاء، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر حماية لوحدة الوطن ودفاعا عن الدين، فكانت إيذانا بمرحلة انتقالية جديدة.

كان آخر السعديين هو أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان، فبه انقرضت دولتهم على يد أخواله الشابانات سنة (1065هـ) كما جاء في نشر المثاني، وعند الناصري سنة (1069هـ)، وفي ذلك يقول:"وبمهلك السلطان أبي العباس رحمه الله انقرضت دولتهم، انقرضت دولة السعديين من آل زيدان، وانهار جرفها، وانطوى بساطها، وسبحان من لا يبيد ملكه، ولا يزول سلطانه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم"[11].

لما تفككت الدولة السعدية وانفرط عقدها ظهرت الزوايا إيذانا بغياب الدولة، ومن هذه الزوايا الزاوية الدلائية بجهة بني ملال خنيفرة حاليا، والتي سنظهر علماءها اللغويين الذين عنوا باللغة العربية وبخدمتها والتأليف فيها، وعلى رأسهم سيبويه الدلاء والمغرب عموما أبو عبدالله محمد المرابط الدلائي.

- التعريف بعلوم اللغة والنحو:

علوم اللغة العربية هي التي يتوسل بها إلى سَمْت العرب في النثر والشعر، وعلى رأس هذه العلوم يأتي النحو والصرف، ثم علوم البلاغة، فضلا عن العروض والقافية..، وقد ركز هذا العمل على ما اهتم به علماء جهة بني ملال خنيفرة بشكل خاص لاسيما في آخر الدولة السعدية وهو علم النحو والصرف انطلاقا من أعمال أحد علماء هذه الجهة، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد المرابط الدلائي.[12]

- النحو: لغة القصد، واصطلاحا: هو العلم الذي تعرف به أحوال أواخر الكلمات المعربة والمبنية، وفيه يقول ابن جني:" انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك."[13]

وقال أبو حيان:" النحو علم مؤهَّل بمقاييس كلام العرب المُعرِّفة أحكام أجزاءٍ ائتلف منها"[14].

وبناء على ما سبق فالنحو وسيلة لمعرفة صواب الكلِم من ملحونه، وكذا بلوغ فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد كان في البداية مشتركا بين ما يهم المفردات والتراكيب؛ بنية الكلمة وأحوال أواخرها في التراكيب، فكان النحو والصرف علما واحدا. وبَدَهي أن علم النحو المُوصل إلى فهم كتاب الله تعالى كان شرفا رامه المسلمون جميعا، واهتم به غير العرب أكثر، ومنهم المغاربة منذ الفتح الاسلامي، بل وبرعوا فيه، وتلقوا كتاب سيبويه واعتبروه الطريق إلى كتاب الله. قال أبو حيان: "ما زال في أفقنا المغربي الأندلسي، على بعده من مهبط الوحي النبوي علماء بالعلوم الإنسانية وغيرها... ومما برعوا فيه علم الكتاب، وانفردوا بإقرائه، وقربوا قاصيه، وراضوا عاصيه، وفتحوا مقفله، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا شعابه، ودللوا صعابه وأبدوا معانيه في صورة التمثيل، وأبدعوه بالتركيب والتحليل، فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب"[15]

- **جهود علماء الجهة في اللغة العربية:**

- **تـمهيـد**

يتميز العصر السعدي ثقافيا وفكريا بمرحلتين متكاملتين، مرحلة المنصور السعدي، ومرحلة الزاوية الدلائية، ويمكن اعتبار جهود الجهة تتمة لما كان في زمن المنصور الذهبي على يد علماء الدلاء، في علوم عديدة منها علم النحو والصرف.

لقد أسهم المنصور الذهبي شخصيا في تشجيع العلم وانتاجه، فهو الحاصل على إجازات متعددة من شيوخ وعلماء، وقد ذكر المؤرخون أنه بلغ درجة الاجتهاد[16] وهو الذي جالس الطلبة والعلماء و الشعراء، وفي حكمه شجع العلم في المغرب وخارجه، وكان إلى جانبه عبد العزيز الفشتالي، والمقري وأحمد بابا السوداني وابن القاضي، واحمد المنجور وغيرهم[17]، وقد قيل في حضرته الكثير من المرويات والمنظومات والتوقيعات، سواء في التشييد أو في المولد النبوي... وبلغ عدد المراكز العلمية في المدن والبوادي خمسة وستين مركزاً، منها في الوسط الذي تنتمي إليه الجهة أربعة مراكز قروية وأربعة وعشرون عالما. لكن برحيل المنصور الذهبي انشغل السلاطين بعده بالفتن والثورات، فظهرت الزاوية الدلائية حاملة لواء الفكر والثقافة والعلم.

جاء في النبوغ المغربي: "فترت الحركة العلمية في المغرب بعد وفاة المنصور الذهبي فتورا كبيرا.... ولكن من الألطاف الخفية أن ظهرت الزاوية الدلائية في ذلك الحين، فكأنما بعثها الله لحفظ تراث العلوم والآداب الذي كاد أن يضيع، فقامت عليه خير قيام، وما هي إلا مدة قليلة حتى صارت مركزا مهما لنشر الثقافة العربية بين قبائل المغرب"[18].

لقد تولت الزاوية الدلائية منذ نشأتها رعاية العلم وشؤون طلبته، وكانت تُشد إليها الرحال من كل الربوع المغربية، لا يعدوها الطالب، ولا يأمل سواها الراغب كما قال صاحب "الاستقصا" [19]، وفي هذه المرحلة من تاريخ المغرب أنجبت الزاوية الدلائية عددا من العلماء، وقصدها آخرون، ويكفي أن نذكر أبا علي اليوسي علامة المغرب في زمانه، وأستاذه أبا عبدالله محمد المرابط الدلائي، وابنه محمد بن المرابط

الدلائي، وكل أبناء أبي بكر الدلائي مؤسس الزاوية الدلائية، كما نجد في الزاوية من الملتحقين أحمد بن القاضي والحسن الدرعي، والفاسي أحمد بن عمران، ومحمد بن سودة وأحمد المقري، ومحمد بن عبد الرحمن الصومعي، وأحمد بن يعقوب الولالي...[20]

وإلى جانب هؤلاء الأعلام تكونت في الزاوية الدلائية خزانة عظيمة اجتمع فيها من الكتب ما يضاهي خزانة الحكم المستنصر بالأندلس[21] وبها تدرس أُمَّات الكتب في اللغة والأدب، والتفسير والحديث والفقه...، فأحيت دماء العلم بالمغرب لاسيما علم اللغة كما سيأتي ذكره، وتعدادها حوالي عشرة آلاف سفر[22].

وتجدر الاشارة أن كتب اللغة التي أَسهَمَ بها علماء الجهة في هذه المرحلة عديدة منها:

- حاشية على المطول للتفتازاني، للشرقي بن أبي بكر الدلائي (ت 6079)
- نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل لمحمد بن محمد المرابط الدلائي
- فتح اللطيف للبسط والتعريف في علم التصريف للمرابط الدلائي
- شرح ألفية ابن مالك للمرابط الدلائي...[23]

وباعتبار المرابط الدلائي المبرز في النحو في هذا العصر، وواسطة العقد فيه، ستركز الدراسة على جهوده وخدمته للغة العربية:

- **المرابط الدلائي مدرسا للنحو:**

يعد المرابط الدلائي أستاذا في اللغة عموما والنحو خصوصا، وكان لقب الأستاذ يتأتى لمن يجمع اللغة والأدب معا بعلومهما[24]، وليس ذلك غريبا عن المرابط الدلائي، فقد أخذ هذه العلوم عن أبيه والذي تلقاها بدوره عن أبي العباس أحمد بن القاضي، وهي علوم ثمانية: اللغة والنحو والتصريف، والعروض والقوافي وصنعة الشعر، وأخبار العرب وأنسابها، وقرأ عليه مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري المصري والكامل للمبرد، والأمالي للقالي، ومختصر العين للزَّبيدي[25].

أما مجالسه التعليمية مدرِّسا فقد كان يحضرها أمثال الحسن اليوسي وأحمد بن عبدالقادر القادري وابنه محمد بن محمد المرابط الدلائي وأحمد بن المنساوي الدلائي (ت1117هـ) وسيدي عبدالسلام بن الطيب القادري وغيرهم.

قال اليوسي: " حضرت عنده تلخيص المفتاح بمختصر السّعد، ومواضع من الخلاصة، وصدرا من تفسير القرآن بتفسير الجلالين..."[26].

من البديهي إذا، أن نجد المرابط الدلائي يلقب ب "سيبويه المغرب" و "سيبويه الزمان" و "سيبويه الدلاء" [27] فقد انتقى من الكتب النحوية كتابا جامعا في المادة والمنهج معا، مثيرا للنقاش، يرفع النحو من بُعده التقعيدي إلى غايته الوظيفية التواصلية، فالملَكات لا تحصل إلا بكثرة الأفعال[28]،وهو كتاب "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" لابن مالك الأندلسي (ت672هـ)، هذا الكتاب الذي استفاد من المدارس النحوية وأعلامها، وأضاف إليها الخصوصية المغربية الأندلسية، وفي ذلك دراية ودُربة من المرابط وأستاذية. يقول الدكتور مصطفى الصادق العربي: "هذا الكتاب يعتبر ذخيرة علمية جامعة لكل القواعد النحوية والصرفية، مرتبة ترتيبا بديعا حسب المناسبات والاستطرادات، وارتباط اللاحق بالسابق، فكان نموذجا للمناهج العلمية المعتمدة على التجربة والدراسة بدقائق الأمور "[29].

هذا المديح والتقدير سبق إليه أستاذ المرابط الدلائي بالواسطة صاحب "التذييل والتكميل" أبو حيان النحوي حيث يقول: "أحسن كتاب موضوع في علم النحو وأجلِّه، كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه رحمه الله تعالى، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات، وأجمعه للأحكام كتاب تسهيل الفوائد لأبي عبدالله محمد بن مالك الجياني الطائي المقيم في دمشق[30].

أما عن الجانب التعليمي والتربوي ودرجتهما في مجالس المرابط فقد اعتبر محمد حجي مجلس المرابط قمة في النحو، وما يربطه بتلامذته من تقدير وود واحترام يدل على مكانته ومنزلته وتحبيبه للعلم و الإقبال عليه، ويكفي مثالا لذلك إجازته لتلميذه اليوسي، وما قال في حقه، جامعا بين الجانب التعليمي والجانب التربوي "الصدر الرئيس وفارس الاملاء... صاحب النباهة الشامخة والنزاهة الباذخة والجلالة العليا"[31]، وكان إذا وعظ جاء بالعجب العجاب، يسحر الألباب، من البعداء والقرباء والأحباب مع الفصاحة وحسن العبارة[32].

إن خروج المرابط من الدرس اللغوي في قواعده إلى الاشتغال بالخطابة والنقد والمناظرة أعطى للغة بعدا وظيفيا في المهارات الحياتية، وجعل النحو وسيلة لا غاية، فاللغة تعبير عن حاجيات الحياة، واقناع بالرأي، وتواصل مع العصر وتأثير فيه... قبل أن تكون جملة من القواعد الواصفة والمؤصلة، لذلك جمع المرابط الحُسْنيين، التمكن والدراية، والانفتاح والدُّربة.

المرابط الدلائي مصنفا في النحو:

أما عن المرابط المؤلف في النحو فقد جمع بين الشرح النحوي، والنقد النحوي، والمناظرة النحوية، ونقد النقد النحوي، والنحو المقارن، هذا إلى جانب فك مغالق التصريف، لذلك نجد له من الكتب:

- **نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل:** هذا أعظم كتاب ألفه المرابط الدلائي، وكأنه خزانة نحوية، أتى بها المرابط كي يستغني به طالب النحو عن غيره، وهو في أربعة مجلدات، ويتجاوز ألفي صفحة، نال به المرابط شهرة في المغرب والمشرق، وبه لُقِّب بسيبويه المغرب، وسيبويه زمانه، ورأس مؤلف زمانه في علم العربية[33]

يعد كتاب "النتائج" أكثر شروح التسهيل توسعا، فقد تأخر عن شُرّاح التسهيل، واستفاد منهم، وناقشهم، وصحح هفواتهم، وقد شرع المرابط في تأليفه سنة تسع وستين وألف للهجرة (1069هـ) وتَمَّ الفراغ منه ليلة الخميس العشرين من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وألف للهجرة (1074هـ)، ولقيمته العلمية قرضه العلماء في المغرب والمشرق وأثنوا عليه، وسارت بذكره الركبان، ومن هؤلاء اليوسي وأحمد بن محمد بن ابي بكر الدلائي، وأحمد بن الخديم الدلائي، ومن علماء الأزهر أحمد شهاب وعبدالقادر بن الجلال المحلي.جاء في الصفوة: "لما بلغ شرح صاحب الترجمة على التسهيل لقاعدة مصر تنافس فيه الطلبة فذكر للشيخ يحيى الشاوي فتغالى فيه حتى اشتراه بنحو عشرين دينارا"[34].

يتضمن كتاب "نتائج التحصيل" ثمانين بابا:

* الجزء الأول: يشمل أربعة عشر بابا، من باب الكلمة والكلام إلى باب أفعال المقاربة.
* الجزء الثاني: يشمل سبعة عشر بابا، من باب الحروف الناصبة للاسم والرافعة للخبر إلى باب "كَمْ" و "كَأَيِّن" و "كَذَا".
* الجزء الثالث: يشتمل على ثمانية وعشرين بابا؛ من باب "نِعْمَ" و "بِئْسَ" إلى باب المصدر الذي زيدت الميم في أوله لغَير ما تقدم وليس صفة.
* الجزء الرابع: يشتمل على واحد وعشرين بابا، من باب أسماء الأفعال والأصوات إلى باب الهجاء.

وقد أورد المرابط ضمن هذا الكتاب النحوي باب التصريف في الجزء الرابع منه، وهو الباب السادس والسبعون، ويشتمل على أربع وتسعين صفحة وسبعة وعشرين فصلا.

اعتمد المرابط الدلائي في "نتائجه" على كتب النحو التي سبقته وعاصرته، وناقش شراح التسهيل، واعتمد آراء المدارس النحوية دون استثناء، بما فيها المدرسة المغربية الأندلسية. يقول الدكتور حسن جلاب: "والملاحظ أن المرابط الدلائي لم يترك كتابا هاما في النحو دون الاستفادة

منه ودراسته وعرض ما فيه في أبواب كتابه. وقد هضم هذه الكتب هضما، وتمكن منها، فنحن نجد آراء كبار النحاة معروضة في شرحه يوافقها أو يخالفها، ويؤيدها أو يردها، ويوازن بينها، ويرجّح ويختار في تبصر ويقظة"[35].

هذا وقد بلغ عدد الأعلام في الجزء الأول فقط من نتائج التحصيل أكثر من أربعمائة علمٍ والذي تقدم به مصطفى الصادق العربي لنيل شهادة الدكتوراه إلى قسم اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة تسع وسبعين وتسعمائة وألف، وعدد صفحاته خمسين ومائتين وألفي صفحة (2250 صفحة).

أما عن الشواهد في هذا الجزء الأول فقط فهي على الشكل الآتي:

- ✓ **الآيات القرآنية: ست وعشرون وتسعمائة آية (926 آية)**
- ✓ **الشعر: خمسون وثلاثمائة وألف بيت (1350 بيت)**
- ✓ **الحديث النبوي الشريف: ستة عشر ومائة حديث (116 حديث)**
- ✓ **الآثار من النثر: اثنان وأربعون قولا أو مثلا (42 قولا أو مثلا)**

أما عن منهج المرابط الدلائي في نتائج التحصيل "فمنهج الحركة الذائبة، وتحقيق المسائل العلمية، واستخراج المفاهيم واستنباط القواعد، من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولا يهمه في سبيل الوصول إلى ذلك مكانة الجانب المقابل، وعظمة منزلته... هذا وقد كان لشارحنا مجهود جبار ورأي قويم مما يدل على غزارة علمه، وثقوب فكره، والدليل على ذلك مخالفته لأبي حيان، ومعلوم من هو أبو حيان"[36]

وطبعي أن يدخل المرابط في هذا الكتاب/ الخزانة في حوار مع النصوص الأخرى في علم النحو، هكذا نجد مثلا في شرحه:

- شرح أبي حيان للتسهيل في "التذييل والتكميل" (621 نص)
- ابن مالك وابنه في شرحهما للتسهيل: 578 نص.
- الدماميني في شرحه للتسهيل "تعليق الفوائد" (489 نص)
- كتاب سيبويه: 158 نص
- شرح ابن أم قاسم للتسهيل: 122 نص
- مغني اللبيب لابن هشام المصري (93 نصا)...

إن نهج المرابط وافق فيه نهج نحاة المغرب والأندلس، والذين يطلِق عليهم لقب "أصحابنا"، والذي يخالفون فيه نظراءهم المشارقة[37]، وقد أشرنا سابقا إلى رأي أبي حيان في هذا الشأن، فهم بارعون في علم الكتاب يقربون قاصيه ويفتحون مقفله ويوضحون مشكله ويدللون صعابه.. وسنورد إشارة منهجية لاحظها المرابط على ابن مالك صاحب "التسهيل"، يقول المرابط:

عقد المصنف (ابن مالك) الباب بشرح الكلمة لا بحدِّها، لأن حدَّ الشيء عسير الوجود وإن اشتركا (يقصد الشرح والحدّ) في كشف المحدود وبيانه. وكان يجب البداءة أولا بشرح النحو وبيانه، ثم يشرع في شرح ما ذكر، إذ لابد للناظر في علم من العلوم أولا من معرفته إجمالا، ثم يعرّف ما احتوى عليه ذلك العلم تفصيلا[38].

❖ **فتح اللطيف للبسط والتعريف في علم التصريف:** من مؤلفات المرابط الخاصة بعلم التصريف، وكان النحو والصرف متلازمين يكمل أحدهما الآخر، وكأنهما وجهان لعملة واحدة. فالصرف يتناول بنية الكلمة والنحو يتناول إسنادها لغيرها.

يعد هذا الكتاب شرحا لمتن عبدالرحمن المكودي المُعنون ب: "البسط والتعريف في نظم ما جلّ من علم التصريف"، وهو نظم رجزي من تسعة وأربعمائة بيت (409 بيت)، والمكودي هذا من كبار علماء اللغة المغاربة، وآخر من درَّس كتاب سيبويه بمدرسة العطارين بفاس، وكانت وفاته سنة سبع وثمانمائة للهجرة (807هـ)، مخلفا شروحا على الألفية وعلى الآجرومية وغيرهما.

شرح المرابط الدلائي متن عبدالرحمن المكودي وبدل فيه مجهودا عظيما حتى استوى ونضج. يقول المرابط: "شرح يزهو على الشروح، شامخ المباني والصروح، متجاوب الأطراف متداني المعاني والأقطاف"[39]. أما عن تاريخ تأليف هذا الكتاب فيبدو أنه سابق لكتابه "نتائج التحصيل" لأنه يستشهد منه في نتائج التحصيل، ويردّ على الدماميني منه في بعض المسائل الاشتقاقية، مع العلم أنه شرع في "النتائج" سنة تسع وستين وألف للهجرة (1069هـ) كما سبقت الاشارة إلى ذلك سابقا.

افتتح المرابط "فتح اللطيف" بدواعي التأليف في التصريف، ثم انتقل إلى الترجمة للمكودي معددا أفضال علم الصرف، مذكرا بما ورد فيه عند السابقين كابن مالك والمرادي والدماميني وغيرهم.

أما الموضوعات فهي متدرجة، يتبع فيها المرابط ما جاء به المكودي لكنه يشرحه شرحا وافيا حينا إلى درجة الإطناب، ويوجز حينا ويختصر، ولعل مَرَدّ ذَلك إلى ما يسمى في علوم التربية الحديثة بإيقاعات التعلم، واختلاف مراتب المتعلمين، فالمبتدئ يجد فيه ما يبني به معرفته، والمنتهي يثير نقاشه وينتقد به ما حصّله من ذي قبل. وقد وردت الموضوعات كما يأتي:

- ✓ **أبنية الاسماء غير المزيدة: من البيت الثامن والعشرين إلى البيت الواحد والخمسين {21–51}**
- ✓ **أبنية الأفعال غير المزيدة: من البيت الثاني والخمسين إلى البيت الرابع والسبعين بعد المائة {52–174}**
- ✓ **باب الإبدال: من البيت الخامس والسبعين بعد المائة إلى البيت الثاني والتسعين بعد المائتين {175–292}**
- ✓ **باب القول في نوادر الاعلال: من البيت الثالث والتسعين بعد المائتين إلى البيت الأربعين بعد الثلاثمائة. {293–340}**
- ✓ **باب تصريف الأفعال: من البيت الواحد والأربعين بعد الثلاثمائة إلى البيت السادس والخمسين بعد الثلاثمائة. {341–356}**
- ✓ **باب في بناء بعض الكلم من بعض كلم أخرى: من البيت السابع والخمسين بعد الثلاثمائة إلى البيت الثامن والسبعين بعد الثلاثمائة. {357–378}**
- ✓ **باب الإدغام: من البيت التاسع والسبعين بعد الثلاثمائة إلى البيت الثاني بعد الأربعمائة {379–402}**

هذا وقد اشتملت المقدمة مع الخاتمة، وما ارتبط بهما من البسملة والحمدلة على أربعة وخمسين بيتا.

التزم المرابط منهجا في شروحه يعد البيت نصا للانطلاق، معتمدا بعد العَنْوَنَة الأبيات متنا، مقدِّما أمثلة ونقاشات، مُوردا أقوال مَن سبقوه، مقدما رأيه مستدلا بما يناسب من القرآن أو الشعر أو غيرهما. لذلك نجد أعلاما وكتبا يوردها المرابط في شرحه حينا ونقده آخر، كالمازني وأبي حيان وابن عصفور وابن هشام وابن يعيش وابن خروف والزمخشري وغيرهم. يقول الدكتور حسن جلاب: "يلاحظ القارئ أن المرابط متمكن من هذه الكتب جميعا، هاضم لها، عارف بمحتواها، وكأنها مسطورة أمامه، يأخذ من هذا رأيا، ومن ذاك اعتراضا، ومن الآخر فائدة، ومن الرابع اختلافا ومذهبا..."[40].

❖ **النوازل اللغوية**: ذكر كل من المحبي واليوسي أن المرابط الدلائي كان يجيب عن الأسئلة التي تثير خلافا في اللغة، وكان يتلقى تلك الأسئلة ويجمعها ويحاضر فيها، وهي عبارة عن رسائل صغيرة وتقاييد ممنهجة[41]، ومن هذه الرسائل النحوية:

❖ **فصل الخصمين في متعلق الظرفين**: اضطلعت هذه الرسالة في فصل الرأي في جواز تعلق ظرفين اثنين بمتعلق واحد، أي بنفس العامل، واستدل على ذلك بآيات قرآنية وأبيات شعرية، كقوله تعالى: **(وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر)** مريم، 38، وقوله:**(وأَنْذِرْهُم يوم الآزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين)** غافر، 17، ففي الآيتين نجد ظرفين، أحدهما بدل من الآخر، ولهما متعلق واحد، وهما: "يَوْمَ" و "إِذْ".

كما نجد ذلك في البيت الشعري (من الطويل):

كأَني غَدَاة البيْن يوْمَ تَحَمَّلوا

لَدَى سَمرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

فالظرفان "غداة" و "يوم" لهما متعلق واحد، والثانية بدل.

يتتبع المرابط مواقع "إذ" و "يوم" الإعرابيتين، ويتتبع المعنى تبعا لذلك، مستدلا بأقوال علماء اللغة كسيبويه وابن عصفور وابن هشام والسهيلي وغيرهم.

❖ **الدلائل القطعية في تقرير النصب على المعية فيما يتعلق ببعض أبيات الألفية**: يتعلق هذا التقييد بالفصل بين المعية والعطف وما بينهما من جواز ووجوب انطلاقا مما أورده ابن مالك في ألفيته:

والنَّصبُ إن لم يجُز العطف يجب ** أو اعتقد إظهار عامل تُصِبْ

وقد أورد المرابط في المسألة حالات:

* وجوب الرفع: كُلُّ رجُلٍ وضَيْعَتُهُ خلافا للصيمري.
* العطف: جاء زَيْدٌ وَ عَمروٌ، وخالفه الجرجاني.
* امتناع العطف: جئت وزيداً.
* وجوب المعية: مَالَكَ وزَيْداً.

❖ **التحرير الأسمى في إعراب الزكاة اسما**: أثار المرابط في هذه المسألة كلمة "اسما"، وحاول ذكر أعاريبها انطلاقا من نص ابن عرفة: "الزكاة اسما شيء من المال... ورأى أن الاضطراب يطبع تلك الأعاريب محاولا تصويبها ما بين النصب بنزع الحافض أو النصب على الحال أو التمييز.

❖ **رفع اللبس عن ورود "تَفَعَّلَ" بمعنى "فَعَلَ" والعكس**: ويبدو أن هذا التقييد يتناول معاني حروف الزيادة، وما تثيره بعض الزيادات في المباني على المعاني.

خـاتـمـــة:

خلاصة لما سبق فقد حاول هذا العمل أن يظهر ما ساهم به علماء جهة بني ملال خنيفرة في خدمة اللغة العربية؛ لغة القرآن الكريم، لاسيما في زمن تعطلت فيه المدن الكبرى مثل فاس ومراكش وتطوان وغيرها، فكانت هذه الجهة لاسيما في الأطلس المتوسط واحة للعلم ومُؤْئِلاً للآئِذِ ومؤْثِقاً للشاكِّ، ومقصدا لكل راغب في المعرفة والتعليم في أواخر الدولة السعدية.

لقد خلصت هذه المقالة إلى النتائج الآتية:

- إن علماء الجهة في اللغة العربية أسهموا بنصيبهم الوافر في خدمة لغة القرآن، فكان لهم الشرف في الاستمداد وفي الإمداد.
- إن علماء المغرب عموما، والدلاء خصوصا ارتبطوا بالقرآن الكريم وقراءاته وعلومه، واهتمامهم بالنحو والبلاغة والصرف وسيلة إلى خدمة القرآن وتدارسه.
- إن المرابط الدلائي عالم موسوعي تلقى العلوم اللغوية وألقاها، وخرج بها إلى التواصل والخطابة والمهارات الحياتية، فهو صاحب كتاب "البركة البكرية في الخطب الوعظية" و "الدّرة الدرية في محاسن الشعر وغرائب العربية" و "المعارج المرتقاة إلى معاني الورقات" وغيرها. إنه مثال لما يجب أن يكون عليه عالم اللغة كمثقف عضوي، لم يدرس اللغة من أجل اللغة، بل اعتبرها، وهو سيبويه المغرب بدون منازع، وسيلة لخدمة المجتمع؛ أستاذا بالدلاء وفاس، وخطيبا لمدة ثلث قرن، ومؤلفا بارعا حاور علماء اللغة وكذا الفقهاء والشعراء... بل وأسهم في نقد الدرس اللغوي وتجويده عبر دراساته المقارنة، وملاحظاته الموضوعية عبر ما يطرحه زمانه من الأسئلة العالقة، فجمع الحسنين؛ الارتباط بالأصل والاتصال بالعصر..

الهوامش:

[1]الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيقه: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1995م، ج5، ص3.

[2]الفشتالي عبد العزيز: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة، ص199

[3]الناصري ج5، ص4

[4]الناصري، ج5، ص6

[5] العربي، عيسى: قبيلة ايت اعتاب، السكان وحياتهم الدينية عبر التاريخ، ط1،دار الخطابي للطباعة والنشر،الدار البيضاء،1992،ص ص 29-31. [5]

[6]الناصري ج5، ص 81

[7]الفشتالي، ص1

[8]الفشتالي، ص51، الهامش نقلا عن دي كاستري، فرنسا، ج2، ص22

[9]العربي مصطفى الصادق، مقدمة كتاب: نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل، لأبي عبد الله محمد المرابط الدلائي، مطابع الثورة، بنغازي، 1979م ج1، المجلد 1، ص16

[10]كنون عبدالله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، دار الثقافة، 11380هـ،238/1

[11]الناصري، 108/6

[12]ابن منظور، جمال الدين بن مكرم: لسان العرب، ضبط نصه وعلق حواشيه خالد رشيد القاضي، ط1، دار الصبح وإيديسون، بيروت ـ الدار البيضاء،1427هـ- 2006م، مادة [ن.ح.و]

[13]ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب، 34/1

[14] أبو حيان، محمد بن يوسف الآندلسي الغرناطي (ت 745 ه): تقريب المقرب في النحو، تحقيق: محمود أمين السيد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1444هـ، 2022م، ص31.

[15]أبو حيان، محمد بن يوسف، أثير الدين: تفسير البحر المحيط، وبهامشه تفسيران جليلان لأبي حيان، الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة مطابع النصر الحديثة، 3/1

[16]العامري، محمد الهادي: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، ص224

[17]علي حسن، إبراهيم: أحمد المنصور الذهبي، سلسلة: خالدون في تاريخ المغرب، العدد السادس، ط1، دار الثقافة، 1407هـ- 1987م، ص145.

[18] النبوغ المغربي في الأدب العربي، 238/1

[19]الناصري، الاستصقا 6 /97.

[20]حسن جلاب: أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي، ص ص 36- 37

[21]محمد حجي: الزاوية الدلائية: ص ص68-69

[22]نفسه، ص71

[23]حسن جلاب، أبو عبدالله المرابط الدلائي، 458

[24]القفطي، علي بن يوسف (ت 624ه): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط1، دار الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1982، 113/4.

[25]مقدمة نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل للمرابط الدلائي، تحقيق مصطفى الصادق العربي، ج1، 51/1

[26]اليوسي، الحسن بن مسعود (ت1102)، فهرسة اليوسي، تحقيق: زكرياء الخثيري، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص66.

[27]السميحين، عادل عابد، الدرس النحوي في نتائج التحصيل في شرح كتاب التسهيل للمرابط الدلائي، رسالة جامعية، جامعة مؤتة، الأردن، 2013م، ص14/ حسن جلاب، أبو عبدالله محمد المرابط الدلائي، عالم الزاوية الدلائية وأديبها، ص 486.

[28]بودرع عبدالرحمن: من نحو القواعد إلى نحو المبادئ، مجلة فقه اللسان، العدد الثاني، الرابطة المحمدية للعلماء ومركز ابن أبي الربيع السبتي، المملكة المغربية، 1439هـ، 2017م، ص56.

[29]مصطفى الصادق العربي، مقدمة النتائج ص81.

[30] أبو حيان، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الجواد، وعلي محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 6/1.

[31]اليوسي، الفهرست، ص66.

[32]الحوات، البدور الضاوية، 133.

[33]المحبي، محمد أمين (ت1111ه): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، القاهرة، 203/4.

[34]الإفراني، محمد الصغير بن الحاج: صفوة من انتشر من أخبار وصلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق: عبد الحميد خيالي، ط 1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 180.

[35]حسن جلاب، أبو عبدالله محمد المرابط الدلائي، ص 415

[36]مصطفى الصادق العربي، تحقيق نتائج التحصيل للمرابط الدلائي، ص 1352.

[37]ناعيم، مليكة: مدرسة النقد النحوي في الأندلس، بحث في الأسس النظرية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص56.

[38]المرابط الدلائي، نتائج التحصيل 139/1

[39]المرابط الدلائي، فتح اللطيف للبسط والتعريف في علم التصريف، ط حجرية، 1315هـ، ص1

[40]حسن جلاب، أبو عبد الله المرابط الدلائي، ص389

[41]المحبي، خلاصة الأثر، 204/4